من الحلى الى الحلل

مهما اختلف الناس في الاشكال والالوان وضروب المعيشة فاختلافهم في اللباس اشدّ واغرب . فتجد بينهم العراة والمؤتزرين بالمئزر والمرتدين بالرداء واللابسين السراويل والقراء والبرافير ولهم في ذلك كلهِ مذاهب شتى وازياء يقصر القلم عن وصفها ولاسيّما اذا تغيّرت شهرًا بعد شهر كازياء النساء الاوربيات اللواتي لا تلبس انثتان منهنّ شكلاً واحدًا من الثياب وقد لا تلبس الحلّة الواحدة الاّ يومًا واحدًا او بضعة ايام

وقد اختلف العلماء في حقيقة الداعي الذي دعا الناس الى لبس الثياب فقال قوم هو الاستحياء من كشف العورة وقال غيرهم هو اتقاء البرد والحر وقال آخرون هو مجرّد التزيّن والتجمّل . اما القائلون بالاستحياء فيُعترَض عليهم بان شعوبًا كثيرة لم تزل حتّى يومنا هذا عارية الابدان لا لباس عليها وهي لا تستحي من ذلك ولا تحسب ان في العري ما يوجب الحياء . فلو كان الاستحياء هو العلة الداعية الى لبس الثياب ولو الى لبس ما يستر العورة منها لكان لبسها عامًّا شاملاً لجميع طوائف الناس . وزد على ذلك ان البعض يكتفون بلبس خرقة على صدورهم او ظهورهم و يتركون بقية ابدانهم عاريةً فاذا خلعوا هذه الخرقة حسبوا نفوسهم عراةً واستحيوا ان يظهروا امام الغريب واذا كانوا لابسين لها حسبوا انهم في ابهى الحلى والحلل مع ان ابدانهم كلها عارية الاّ ما تسترهُ الخرقة المشار اليها

وما لنا ولإبعاد الشواهد فنحن الذين نلبس الطربوش ذا العذبة (الطرّة او الشرابة) اذا كان احدنا في السوق او في نادٍ من النوادي ووضع يدهُ على رأسهِ فوجد ان العذبة مقطوعة من طربوشهِ نخجل واستحيا كانهُ عارٍ من اللباس او كأنهُ ارتكب جريمة وكذا اذا كان ممّن يلبسون الثوب الاوربي ونسي ان يربط رقبتهُ بالربطة المعهودة . ومعلوم ان عذبة الطربوش وربطة الرقبة من الفضلات الزائدة التي لا تستر عورةً ولا تجمّل لابسها . وقس على ذلك فقدان كل ما اعتادهُ الانسان في لباسهِ سواء كان لازمًا لستر بدنهِ او غير لازم وسواء كان استعمالهُ قديمًا او حديثًا

وقد ذهب البعض ومنهم ادلف باستيان وجاغور وغيرهم الى ان العُري غير مستهجن في السود كما هو مستهجن في البيض لان سواد البشرة يستر ما يُرى من الاختلاف بين اجزاء البدن . والظاهر انهم نسوا اعتيادهم رؤية السود عراة وعدم رؤية البيض عراة مثلهم فلم يعودوا يستهجنون الاولى كما يستهجنون الثانية . ومثل ذلك رؤية النساء الاوربيات

عاريات الايادي والصدور والظهور في المراقص (البالات) فان الشرقي الذي يرى ذلك اول مرة يقف مبهوتًا مخجلاً مما يرى ثم اذا تكرّر ذلك على بصرهِ حسبهُ امرًا عاديًا ولم يعد يلتفت اليهِ

ومفاد ذلك كلهِ ان ما نشعر بهِ نحن من الحياء والخجل اذا كنّا عراةً مبنيٌّ على اعتيادنا لبس الثياب لا على شعور طبيعي عام لانا نشعر مثل هذا الشعور عينهِ اذا كان الطربوش بلا عذبة او الطوق بلا ربطة او اذا لبسنا ثيابًا في مكان جرت العادة ان يُلبَس فيهِ غيرها ولكن لو شاع لبس الطربوش بلا عذبة والطوق بلا ربطة لصرنا نستحي بالعذبة والربطة كما نستحي بفقدها الآن وكذا لو شاع كشف السواعد والصدور لصرنا نستحي بتغطيتها

والقائلون ان الثياب وُجدت اولاً لدفع عوادي البرد والحر يُعترَض عليهم بان العراة من الشعوب يبقون عراة في ايام البرد والزمهرير كما في ايام الحر الشديد والمكتسين لا يخلعون ثيابهم ولو في اكثر الاوقات اعتدالاً واقلها طلبًا للبس الثياب . ولا ينكر مع ذلك ان الذين اعتادوا لبس الثياب اعتادوا ايضًا ان يتّقوا بها البرد والحرّ

بقي مذهب القائلين ان الثياب وُجدت اولاً لاجل الزينة فان الزينة عامّة في المسكونة كلها بين الذين يلبسون ثيابًا والذين لا يلبسون . ومعلوم ان بعض اعضاء البدن يسهل تعليق الحلى حولها كالصدغين والعنق والمعصمين والعضدين والخصر والساقين والمخلخلين فيسهل من ان يُربَط واحد منها بخيط او سمط وتعلّق بهِ الحلى او الاشياء التي تُستحلى مهما كان نوعها . وتعليق الحلى بالعنق والخصر سهل جدًّا كما لا يخفى ولذلك ترى كثيرين من الافريقيين يعلقون ريش الطيور واذناب الثعالب في مناطقهم اذا ارادوا التزيُّن وقد يستعيضون عنها بالخرز او بسيور مجدولة جدلاً دقيقًا وهم يتباهون بذلك ويتفاخرون بهِ كما يتباهى غيرهم بافخر الحلى والحُلَل

ويمكن ان نقسم انواع الثياب كلها الى قسمين كبيرين ثياب سكان الجنوب وثياب سكان الشمال فالاولى مشتقة من المنطقة والقلادة ومن ذلك ثياب اهل مصر والشام والصين واليابان واليونانيين والرومانيين القدماء . ومهما تنوعت هذه الثياب واختلفت اشكالها وموادها يمكن ردها كلها الى المناطق والقلائد فالخرز على انواعهِ مشتق من المنطقة . والرداء والاتب مشتقان من القلادة . وثياب سكّان الشمال يُقصدُ بها الدفء ولكنها لا تخلو من غرض الزينة ايضًا ومنها اشتقّت السراويل والصدرات وكل الاثواب ذات الاردان الضيقة . وكانت اولاً من الجلود والفراء تلف بها اعضاء البدن لفًا . وفي رأي الاستاذ ستار

ان الجلود لُبست اولاً بقصد الزينة والفخار لان مَن يصطاد وحشًا يميل الى حفظ جلده دلالة على صيده له ومن ثمّ شاع لبس جلود الحيوانات ولاسيما الضواري منها في الاحتفالات الدينية وغيرها وعلى هذا النمط كان ملوك المصريين القدماء ورؤساء كهنتهم يتردّون بجلود الاسود والنمور فنتجت من ذلك الطيالس في الاقليم الحارّ واللفائف في الاقليم البارد وبما ان بدن الانسان واحد في الاقليمين فُصّلت الفراء والجلود والثياب المائلة لها حتّى تكون شبيهة بالبدن فتشابهتا في الاقاليم الحارّة والباردة ولو قليلاً فترى السراويل ضيقًا في البلاد الباردة واسعًا في الحارّة

ولما اعتاد الناس لبس الثياب جعلوا يتفننون في موادها واشكالها فاتخذها بعضهم من الجلود ولم يزل الاعتماد عليها شائعًا في اماكن كثيرة . وللتوحشين اساليب بديعة في دبغ الجلود وتنميقها فيجلسون حول الجلد ويحلقون شعرهُ وينزعون منهُ فضلات اللحم وينقبونهُ بالشوك حتّى يرتفع خملهُ ويفركونهُ بدقيق القرظ والدهن ودماغ الغزلان . واتخذها غيرهم من اوراق الاشجار كاهالي كاليدونيا الجديدة الذين يأتزرون باوراق الاشجار . ويقال ان عامة اهالي مدراس بالهند يخلعون ثيابهم مرةً في السنة ويرتدون باوراق الاشجار اشارة الى اعتياد اسلافهم ذلك في قديم الزمان . واهالي برازيل كانوا يتخذون اكسيتهم من لحاء الاشجار فان عندهم شجرة ينزع لحاها قطعة واحدة كالانبوب الكبير فيلبّسهُ الرجل ويشقّ فيهِ شقين ليخرج منها يديهِ ويلبسهُ على بدنهِ كالقميص . وكثيرون من اهالي جزائر البحر المحيط يتخذون لباسهم من قشر الاشجار . والقشر واللحاء مترادفان في العربيّة وفي ذلك مظنة ان العرب كانوا يتخذون ثيابهم اولاً من قشور الاشجار . ولاهالي بعض الجزائر مهارة عظيمة في اتخاذ الاكسية من اللحاء فيقشرونهُ وينقعونهُ في الماء ثم يقطعونهُ قطعًا طول القطعة قدمان او ثلاث وعرضها ربع قدم ويجلس النساء يخبطنها بالمخابيط الى ان ترق وتتسع ولا يزلن يطوينها ويخبطنها حتّى يصير عرضها قدر طولها فيوشينها باصباغ تستخرج من عصارة النارجيل ويطرزنها باليافهِ وقد يصنعن من ذلك شقةً طول الشقة منها اربعون مترًا فاكثر ويصبغنها بابهى الاصباغ

والظاهر انهُ لما كثر الناس واكثروا من لبس الثياب ولم تعد جلود الحيوانات وورق الاشجار ولحاها تكفيهم توصلوا الى نسج الصوف والشعر واللحاء والالياف وكانوا يجدلون ذلك جدلاً في اول الامر ومن ذلك الجديل والوشاح في العربية وتطرقوا من الجدل الى النسج وتوسعوا في الثياب من قلادة ووشاح يستعملان لمجرّد الزينة الى ربطة

وفوطة واحرام وازار ثم خاطوا القميص والرداء والعباءة وكانت من ذلك ملابس اهالي الجنوب والمشرق . اما اهالي الشمال فالتفوا بالجلود والفراء التفافاً وكانت من ذلك الاثواب الضيقة التي يلبسها رجال الاوربيين لهذا العهد ولمّا تغلّب برابرة الشمال على الممالك الرومانية اقتدى بهم رجال الرومانيين وتولّد من ذلك زي الرجال الاوربي المتّبع لهذا العهد اما النساء وخدمة الدين فحافظوا على الاكسية الواسعة التي كانت شائعة في المملكة الرومانية وفي كل البلدان الحارة ولم يزالوا محافظين عليها الى الآن

واذا صحّ ما تقدّم من ان اللباس مشتق من الحلى وان الغرض منه كان اولاً الزينة ثم اريد به الوقاية وستر العورة وجب ان يقلّ الميل الى التحلي والتزيّن وقد كان الامر كذلك ولكنّ النساء لم يجارين الرجال في الاقلال من الحلى وادوات الزينة بل حافظنَ على القديم ولذلك ترى رجال المتمدنين لا يلبسون الاّ ما ندر من الحلى وهم يكتفون بتعليقها على اثوابهم واما النساء فلا يزلنَ يلبسنها على ايدانهنّ فيتقلدنَ القلائد في اعناقهنّ ويعلقنَ الافراط في آذانهنّ ويلبسنَ الاساور والخواتم . وقد كان غرض الانسان من التزيّن الامتياز على غيره وهو من اقوى الاسباب التي دعت الى الحضارة والعمران

تقدّم صناعة الطب

عثرنا على خطبة في هذا الموضوع للدكتور برنتن جمع فيها زبدة تقدّم هذه الصناعة في الخمس والعشرين السنة الاخيرة فلخصنا منها ما يأتي

كان اعتماد الاطباء في تشخيص الامراض على روية اللسان وجس النبض وهز البول ورؤية الغائط والنفث اما الآن فيتعلّم تلامذة الطب كيفية استعمال مرآة المحجرة (اللارنغوسكوب) ومرآة العين (افثلمسكوب) ومرآة الاذن (اوتوسكوب) والكهربائية والتحليل الكيماوي واستعمال الميكرسكوب وعليهم ان يمتحنوا البول امتحاناً كيماوياً ويتفحّصوا اعضاء البدن ومفرزاته بالميكرسكوب ليعلموا ما حلّ فيها من التغير وما اتصل اليها من انواع الميكروبات وجراثيم الامراض

ومنذ خمس وعشرين سنة كنا نعلم ان التيفوس مرض معدٍ وان الحمرة ونسمّ الدم اذا ظهرا في المستشفى فقد يتعدّان من مريض الى آخر ولكننا لم نكن نعلم اسباب هذه الامراض